كتب إسلامية

يصدرها

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

القاهرة

العلم والحضارة في الإسلام

للأستاذ عبد الحفيظ حسين حسن

العدد ١١٢

السنة العاشرة

١٥ رجب سنة ١٣٩٠ هـ

١٦ سبتمبر سنة ١٩٧٠ م

يشرف على إصدارها

محمد توفيق عويضة



بسم الله الرحمن الرحيم

قَال تَعَالى :

« الرَّحْمَن علَم القُرآن خَلَقَ الانْسان عَلَّمَه
الْبَيَان » .

« صدق الله العظيم »

مقدمة

لم يخلق الله سبحانه وتعالى الانسان فى هذا الكون ليعبث أو يلهو أو يلعب .

ولم يخلق الله الانسان ليطغى بقوته وجبروته وصلفه وغروره، ولم يخلق الله الانسان ليعيش فى أحضان الجهل .

« افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون » .

« تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » .

فالانسان خلق وركب فيه ما ركب من قوى الادراك والعلم والعمل . ليكون خليفة فى الارض . يعمل على اصلاحها واتساع عمرانها واظهار أسرار خالق الكون فيها . وتدعيم أواصر الخير فيها واقرار السعادة والخير فى جميع أصقاعها .

وقد أرشد الى هذه الحكمة كثير من آيات القرآن . منها قوله تعالى فى سورة البقرة وهو يحدث عن مبدأ خلق الانسان :

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس

لك قال انى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .

فهذه الايات توحى بأن العلم أساس للدنيا والدين . فالخلافة فى الارض والسيطرة عليها وتسخير ما فيها واستغلال خيراتها وثمراتها وطيباتها بل وتسخير السموات وما فيها . أساس ذلك كله العلم لا غيره .

ومن ذلك قوله تعالى : « وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » .

ومن ذلك قوله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

وقوله تعالى « يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » .

واذا كانت هذه هى مهمة الانسان فى الحياة وهى حكمة خلقه . وحكمة الانعام عليه بقوى العلم والعمل وحكمة تسخير الكون واخضاعه له فى التفكير والتصريف فانه لا سبيل الى قيام الانسان بهذه المهمة وتحقيق تلك الحكم الا اذا تحصن بالعلم .

واذا كانت الخلافة الإنسانية فى الارض أساسها العلم فإن رسالة الاسلام أساسها العلم أيضا لان محمدا ، رسول الله خاتم الأنبياء والرسل ولأن رسالته مكملة حلقات الرسالات السماوية .

ولهذا يأتيه جبريل بالوحى وفى أول لقاء بينه وبين محمد يقول له بصيغة فعل الأمر — « اقرأ » ويرددها مرات ثلاث ثم يبلغه وحيا يتلى فيه الامر بالقراءة التى هى أدنى مفاتيح العلم . والعلم الذى هو سلم طريق المجد والتقدم « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » .

وتوالت آيات القرآن تحث على الاستزادة من العلم والاغتراف من رحيقه فقال تعالى : قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

وقال تعالى : « وما يعقلها الا العالمون » .

وقال تعالى : « وقل رب زدنى علما » .

ولم يكتف الاسلام بهذا بل فتح مجال العلم للعقل الانسانى وتعدى به أسوار الطبيعة وتغلغل به فى أسرار الحياة .

فقال تعالى : « فلينظر الانسان الى طعامه انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم » .

« فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخــرج من بين الصلب والترائب » .

« وارسلنا الرياح لواقح فأنزلنــا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » .

« سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .

« وفى الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

« ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيــا طوعا أو كرها قالتا اتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصـــابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم » . « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من المـــاء كل شىء حى افلا يؤمنون وجعلنا فى الارض رواسى ان تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » .

« يأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم » .

هذه الآيات وأمثالها كثير « فتحت للعقل الانسانى آفاق الكون وصلت به الى خير ما قدر لهمن الانتفاع والرقى والتقدم » .

وفى آيات القرآن الكريم دعوة الى التأمل والمشاهدة والتفكير فى ملكوت السموات والارض ، لاستنباط الحقائق وما يفيد المجتمع .

« افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت » .

دعوة صريحة الى المشاهدة والتأمل واستنباط الحقائق العلمية منذ اربعة عشر قرنا من الزمان ودعوة صادقة الى اتباع الاسلوب العلمى فى مناحى الحياة :

وكل ما جاء به القرآن فى الحث على التفكر والتفكير دليل على مكانة العقل والعلم فى نظرالاسلام : اذ العقل آلة التفكير والعلم، ثمرة التفكير .

فكل ما ورد فى القرآن حثا على التفكير هو اعلان عن فضل العقل وايحاء بالعمل على تربيته وتقويته وهو فى الوقت ذاته تسجيل

لفضل العلم وايحاء بتحصيله . حتى يتمكن الانسان من الحقائق وتزول عنه غشاوة الجهل . ويتحرر من رق الاوهام والخرافات التى لا صلة لها بواقع الحياة .

وبهذا كان الاسلام دين الفكر والعقل والعلم .

وقد ارتفع القرآن بالعقل وقدره حق التقدير . وجعله ميزة للانسان استحق بها الخلافة فى الارض . وبها احتمل الامانة التى عجزت عن حملها الجبال والارض والسموات : « فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان » .

وأشار القرآن الى العقل ومشتقاته ومترادفاته فى نحو أكثر من ثلاثمائة آية فسماه العقل والفكر والرأى والنظر والفقه والرشد والذكر واللب والحجر والنهى والقلب والفؤاد والحكمة والهدى والبينة والبرهان .

ولم يكتف الاسلام بهذا فحسب بل جعل طلب العلم فريضة .
وقد جاءت آيات كثيرة وأحاديث عدة تدعو الى النظر والدراسة فى هذا الكون الفسيح ونظمه وقوانينه » .

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » .

« قل انظروا ماذا فى السموات والارض » « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض » .

« قل انما اعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » .

« أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها » .

فالقرآن يأمر باستخدام العقل وسائر الحواس استخداما أساسه المشاهدة فالعين يجب أن ترى والاذن يجب أن تسمع والعقل يجب أن ينظر ويفكر .

وهذا هو منطق الاستقراء القائم على المشاهدة والبرهان الحسى والتفكير المنظم المبنى على الواقع .

وبناء على التوجيهات القرآنية للناس بالنظر والدراسة وعلى جعل طلب العلم فريضة انطلق المسلمون يدرسون ويبحثون ويترجمون ويقارنون ويغربلون ويعقدون ويؤصلون .

وكان للحديث النبوى وللأسس العلمية التى سار عليها علماء الحديث فى تحرى الأحاديث النبوية اثر كبير فى ايجاد روح الدقة فى البحوث العلمية وأساليبها .

ولقد اشتملت توجيهات القرآن العقلية على أصول ومبادىء عامة صلحت لأن تكون منهجا فكريا سليما حدد به المسلمون موقفهم من مشاكل الكون والحياة .

واستطاعت هذه التوجيهات أن تمكن المسلمين من الاستفادة من تلك الدرة الالهية التى منحها الله للانسان وهى العقل فنمته وجعلته يمارس الوظيفة الأساسية التى خلق من أجلها حتى كانت

للمسلمين حضارة وعلوم ومخترعات كانت هنـــاك تشريعات وفلسفة وقوانين وطب وفلك ورياضيات وأدب واجتمـــاع وتاريخ وجغرافيا وفنون جميلة وموسيقى وآداب للسلوك والاجتماع .

وكان لكل هذه العلوم والفلسفات أساتذة عباقرة كائمة الفقه ورجال الحـــــديث الذين ضبطوا أســـاليب النقد وقعدوا قواعد التشريع .

وعلماء التاريخ والاجتماع والجغرافيا من أمثال : المسعودى وابن حيان وابن بطوطة والبيرونى وابن خلدون والزرقانى .

وعلماء الفلك من أمثال : يحى بن أبى منصور والطوسى وابن جابر البستانى وأبناء موسى بن شاكر .

وعلماء الرياضيات من أمثال : الخوارزمى الذى أسس علم الجبر والهندسة التحليلية ، والميكانيكا .

حتى الموسيقى كان لها علماء وضعوا أصولها وقواعدها والتاريخ يذكر لنا عشرات العلماء الذين أسهموا فى هذا الميدان أمثـــال اسحاق الموصلى والفارابى وابن محرز والكنـــــدى والخوارزمى والغزالى وهيئة علماء اخوان الصفاء ، وكثير غير هؤلاء .

وجاء فى رسائل اخوان الصفاء الدستور الذى وضعه العرب للبحث العلمى والفلسفى . وهـــــذا الدستور ينحصر فى تسعة أحكام . وها هى كما جاءت فى الرسالة السابقة .

السؤال الأول : هل هو : يبحث عن وجدان الشيء أو عن عدمه والجواب نعم أو لا .

السؤال الثاني : ما هو : يبحث عن حقيقة الشيء .

السؤال الثالث : كم هو : يبحث فى مقدار الشيء .

السؤال الرابع : كيف هو : يبحث عن صفة الشيء .

السؤال الخامس : اى شيء هو : يبحث عن واحد من الجملة أو عن بعض من الكل .

السؤال السادس : أين هو : يبحث عن مكان الشيء او عن رتبته .

السؤال السابع : متى هو : يبحث عن زمان كون الشيء .

السؤال الثامن : لم هو : يبحث عن علة الشيء المعلول .

السؤال التاسع : من هو : يبحث عن التعريف للشيء .

وتدل هذه الأسئلة على الاتجاه العلمى الذى كان بعض العلماء يسير عليه . وفوق هذا وذاك فقد كان المسلمون هم واضعى طرق البحث العلمى التجريبى الذى كان أساسا للحضارة الأوروبية الحديثة ويكفى أن نستشهد فى هذا باعتراف بريفولت .

« ان الأوربيين درسوا عن العرب طرق البحث العلمى التجريبى وانه لم يسبقهم اليها باحث أو مفكر » .

تلقى المسلمون هذه الينابيع من مصادرها الأصيلة واستقرت دعائمها فى أعماق نفوسهم وانطوت عليها أفئدتهم وجوانحهم .

فكانت الرائد الأمين لعقولهم وافهامهم . والغذاء الروحى لغرائزهم ومواهبهم وهذه الينابيع الاسلامية طبعتهم على استقلال الارادة وحرية الفكر .

وكرهت اليهم التقليد والتبعية العمياء ووجهت عقولهم للبحث والانتاج .

وفتحت لهم ميادين العلوم والفنون ، فأقبلوا عليها سراعا ودخلوها من كل باب وبهذه النهضة العلمية الجبارة والثورة الفكرية المتحررة . استطاع المسلمون فى سرعة لم يعرف التاريخ لها مثيلا . أن ينتقلوا الى القيادة الفكرية العالمية ويصبحوا أساتذة الدنيا وعباقرة الفنون . ورواد الحقيقة .

وكان وأصبح هناك قادة وحكام لم يعرف التاريخ لهم مثيلا أمثال أبى بكر وعمر وخالد ابن الوليد والمقداد وصلاح الدين الأيوبى وطارق بن زياد وموسى بن نصير ومحمد الفاتح وغيرهم .

وكانت هناك مدن لم يشهد العالم لها مثيلا مثل القاهرة وقرطبة وغرناطة وأشبيلية وبغداد . مدن تزخر بكل الوان الحضارة .

وكانت هناك دول وممالك فى الشرق والغرب بسطت نفوذها وعقيدتها وفلسفتها وعبقريتها وشرقت وغربت حتى شملت معظم الرقعة المعمورة من الأرض آنذاك الوقت .

كل هذا كان بفعل الاتجاهات العقلية التى غرسها الاسلام فى قلوب الناس والتى أدت الى تنمية القوى العقلية الكامنة فى الانسان المسلم ففتحت امامه آفاقا للتحرر من ربقة ما كان عليه الآباء .

فبحث ودرس وأضاف وجدد وابتكر فكان ذلك النتاج الحضارى الاسلامى الأصيل فى سائر المعارف الانسانية .

العلم والدين

كلمتان من أشيع الكلمات قديما وحديثا ، ولكل كلمة مدلولها ومفهومها وفلسفتها .

فالدين : هو القوانين الاعتقادية التى جاءت من طريق الوحى الالهى . وهو ضالة الأرواح وأنشودة العواطف وبلسم جراح الحياة ونسيم الراحة والطمأنينة ومهب نفحات الحق وهو واحد لا تعدد فيه بعث الله به الأنبياء كافة الى الأمم رفعا لما طرأ عليهم من الخلاف قال تعالى « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » وجاء فى دائرة معارف القرن العشرين حرف « د » ان الدين هو الطاعة والانقياد واسم لجميع ما يعبد به الله .

والعلم لغة : بمعنى المعرفة ولا حاجة بنا الى أن نستشهد بكل ما ورد فى المعاجم ، ففى اللسان مثلا : علمت الشىء أعلمه علما : عرفته ، وعلم بالشىء : شعر وعلمت بالشىء بمعنى عرفته وخبرته والعرفان : العلم وعرفه الأمر أعلمه اياه والتعريف : الاعلام . ومثل هذا فى سائر المعاجم .

والمعنى المشارك فيه هو مفهوم : لفظ الادراك ، والاحرى أن أقول : ادراك النفس على الوجه العام الشامل حسيا كان أو ذهنيا .

فالاحساس والشعور وادراك الأشياء وتصورها وفهم معانى الألفاظ : مفرداتها ومركباتها ومؤلفاتها ، وما يعقل وما يتخيل وما

يتوهم كل ذلك يصح لغة ، او لعـــله يصح ان يؤدى حصوله فى النفس لفظ العلم ولفظ المعرفة على حد سواء .

والعلم ضربان : ادراك ذات الشىء والثانى الحكم على الشىء بوجود شىء هو موجود له أو نفى شىء هو منفى عنه .

والعلم نظرى وعملى : فالنظرى ما اذا علم فقد كمل نحو العلم بموجودات العالم ، والعملى : مالا يتم الا بأن يعمل كالعلم بالعبادات والمعاملات . والعلم هو مجموع المعارف الانسانية المؤيدة بالدلائل الحسية والعلم لا يعترف بمسألة الا اذا قبلها العقل وأيدهـــــا الحس وقبلت الخضوع لأسلوبه من الاختبار والتمحيص والغربلة والتحقيق والتدقيق .

ويطلق العلم ايضا : على ما يضاد الجهل على الاطلاق وقـــد يقصد بالعلم تلك المعرفة الرياضية والطبيعية التى قامت على تجارب دقيقة والتى وصل عن طريقها الانسان الى كشف قوة البخـــار والكهرباء والذرة والفضاء والقمر الى ما شاء الله .

واذا كانت هذه التعاريف ، تعطى فى مضمونها الحد التام لمعنى كلمتى الدين والعلم فهل يجتمعان أو لا يجتمعان ؟

فى نظر المـــاديين والطبيعيين انهما نقيضان لا يجتمعان وضدان لا يلتقيان فمفهوم العلم عندهم لا يعدو حدود الطبيعـــة المـــادية ولا يجتاز اسوارها .

يقول « هكسلى » يطلب هذا العلم حقائق الكائنات الطبيعية بواسطة الحواس مع الاستعانة بجميع ما عرف لهذا العهد من أنواع الآلات .

ويقول الاستاذ بلفور : يتوقف العلم فى تحصيله والتثبيت منه على المقاييس . فكل مالا يقبل القياس من الاشياء فهو خارج أو يكاد يكون خارجا عن حدود الطبيعة .

ويقول وندل : العلم — سواء استعان بالآلات أم لم يستعن — عماده ما يلاحظه الانسان ويحسه من الكائنات وما تهديه اليه فى المعامل الكيمائية والمعامل الطبيعية بالتجارب والآلات التى تمكنه من انتزاع غوامض أسرار الطبيعة من مكامنها العميقة . وما ورد وراء هذا القدر الضئيل يريد العلم المادى ألا يصل اليه ولا يجهد نفسه فى البحث فيه . فما هى الطبيعة ومن الذى أوجدها ؟ ومن الذى يمسك الأرض والسموات أن تزولا ؟ وما هى الآلات التى تكبر أو تقرب لنا العواطف والميول فى نفس الانسان من جمال وسرور وسعادة ؟ وما المقاييس التى نقيس بها درجات تفكير الانسان ومدى ادراكه ووقت فهمه وتحدد لنا ساعة يقظته وساعة نومه .

الحقيقة التى لا يسوغ انكارها أن العلم والدين يلتقيان فى اسعاد البشرية ورفاهية الانسانية والوصول بها الى ذروة ما قدر لها من الاطمئنان والنجاح .

غاية العلم : الكشف عن الحقيقة وخدمة الانسان فى الحياة .
وغاية الدين : اسعاد الانسانية فى الحياة الدنيا وفى الحيـــاة الآخـــرة .

فالدين : أداة لمعرفة الحقيقة والعلم أداة لمعرفة الحقيقة .
اذن : وبدون مجانبة للحق نقول ان العـــلم والدين يواجهـــان الحقيقة الا ان الطرق مختلفة .

فالدين يعطى المعرفة من طريق الوحى الالهى مدركة ببصيرة خاصة أو لقانة فطرية خاصة . على حين ينشد العلم المعـــرفة عن طريق البحث والملاحظة ومقاييس التعميم والاختبار والتجربة . والعلم لا يحكم بصدق قضية الا اذا خضعت لأسلوبه وقام عليها البرهان .

وان الطرائق العلمية والدينية لتعرف الحقيقة ليست متعارضة ولا ينفى بعضها بعضا فان الدين والعلم يعالجان حقيقة واحدة غير انهما يمثلان نواحى مختلفة والعلم وحـــده هو الذى يخضع للتجارب فى المعامل ويرى فيها جوهر الحياة وعناصر القوة .

قال العلامة اينشتاين العلم يخبرنا بما هو كان ولكن الوحى وحده هو الذى يخبرنا بما ينبغى أن يكون .

وهذه التفرقة التى ذكرها اينشتاين مهمة وحقيقة واقعة لا جدال فيهـــــا .

فالعلم يصف ويحلل والدين يأمر ، وقد يستطيع العلم أن يفيدنا ما هو الانسان وكيف أصبح على ما هو عليه ولكن الدين وحده هو الذى يخبرنا لم يعيش الانسان ؟

قال تعالى « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون » وقال تعالى « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكمأحسن عملا » .

والدين وحده : هو الذى يخبرنا أيضا . الى أى غاية يجب أن توجه حياة الانسان . نخلص من هذا الى أن التطور الفكرى والبحث العلمى لا يتعارضان مع الاسلام فى شيء البتة .

وليس لدينا ما يمنع من قبول تلك الآراء التى ذهب اليهـــا الفيلسوف « وليم جيمس » فى قوله « ان موضوع العلم وطرق البحث وأساليب المعرفة تختلف عنها فى الدين ومع هذا لا يناقض أحدهما الآخـــر » .

والاسلام ينظم الحياة من جميع وجوهها . فهو نظام عالمى عام. يوجه الانسان فى الحياة ويساعده على أن يحصل لنفسه وللجماعة الانسانية أسمى درجة من الكمال الانسانى فى الروح والخلق والمادة والعقل والقيم والتقدم . لأنه قانون الفرد والجماعة وكل تكييف لعمل الانسان حسب تعاليم الاسلام يعتبر عبادة مشروعة .

لهذا كله فسح الاسلام مجال العلم للعقل الانسانى وتعـــدى به أسوار الطبيعة وتغلغل به فى أسرار الكون والحياة ولم يقفه

به عند حدود المـــاديات الطبيعية بل تعداها الى كل شىء فى الحياة يفيد الانسان ويعود عليه بالسعادة .

والاسلام لا ينسجم مع نتائج البحث العلمى والعقلى فحسب، بل قدس هذا النوع من البحث وجعل متابعته واجبا دينيا يؤجر عليه الانسان « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وكلمة العلم فى القاموس الاسلامى أطلقت ولم تخصص بمـــادة معينة من مواد العلم فوجب أن تبقى مطلقة دون تقييد بمعـــلوم مخصوص أو منظور مخصوص « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » « وما يعقلها الا العالمون » « وليعلم الذين أوتوا العلم انه الحق من ربك » « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بمـــا أنزل اليك » « انما يخشى الله من عباده العلماء » ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق » . ويرشدنا هذا الاطلاق الى أن العلم فىنظر الاسلام ليس خاصـــا بعلم الشرائع والأحكام وانما المراد بالعلم فى نظره هو كل ادراك يفيد الانسان توفيقا فى القيام بمهمته التى ألقيت على كاهله منذ قدر خلقه وجعل خليفة فى الأرض وهى عمارتها واستخراج كنوزها واظهار أسرار الله فيها . فادراك ما يصلح به النبات وينمو ويثمر وما تستنبت به الارض وتحيا « علم » وادراك ما يصلح الحيوان ويستمر فى نسله وتتصل قوته « علم » وادراك موارد الصناعة على اختلاف أنواعا وكيفياتها وتوزيعها : علم .

وادراك الأمراض وعللها وكيفية الوقاية منها وعلاجها : علم . وادراك ما تعرفه الأمم من وسائل الدفاع والهجوم حفظا للأوطان والبلاد من الدخيل والواغل : علم.ولقد جاء الايماء بهذا كله واضحا وجليا فى القرآن الكريم وبه كان العلم بمعناه الشامل : العنصر الأول من عناصر الحياة فى نظر الاسلام .

فالعلم فى القرآن : يشمل كل أنواع المعرفة ومجالاتها التى تتصل بكل ما ينفع الناس فى دينهم ودنياهم وفى معاشهم ومعادهم وفى اجسادهم وأرواحهم ، وهذا أمر طبيعى باعتباره نظاما كاملا خالدا للبشر كافة ينظم شئون الدين والدنيا معا وليس ابلغ فى بيان هذه المجالات من قول صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام — « ان الله أنزل على القرآن آمرا وزاجرا ومثلا مضروبا فيه نبؤكم وخير ما كان قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم لا يخلفه طول الرد ولا تنقضى عجائبه هو الحق ليس بالهزل من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن خاصم به فلج ومن قسم به اقسط ، ومن عمل به أجر ومن تمسك به هدى الى صراط مستقيم » .

ولقد اشتمل القرآن على ٦٢٣٦ آية منها حوالى ٧٥٠ آية كونية وعلمية احتوت أصولا وحقائق تتصل بعلوم الفلك والطبيعة وما وراء الطبيعة والاحياء والنبات والحيوان وطبقات الارض والأجنة والوراثة والصحة الوقائية والتعدين والصناعة والتجارة والمال والاقتصاد .... الخ واحتوت باقى الآيات على الأصول والأحكام فى المعاملات وعلاقات الأمم والشعوب فى السلم والحرب

وفى سياسة الحكم واقامة العدل والمدالة الاجتماعية والتضامن الاجتماعى وكل ما يتصل ببناء المجتمع وفى رسم شخصية المسلم الكامل خلقا وأدبا وعلما ، وفيما يجب أن يحتذيه من المثل العليا وما يتحلى به من مكارم الأخلاق .

وهذا كله بخلاف العبادات والعقائد والتكاليف وبخلاف القصص وما احتواه من مواعظ وامثال وغير ذلك من شـــتى امور الدين والدنيا مما كان محلا للدراسة والاستنتاج والتأصيل . والبحث والتنقيب وكان آساسا لعلوم الفقه والتفسير والحديث والأصول والأخلاق والاجتماع والبلاغة والأدب وغيرها سواء أكانت عقلية أم نقليـــة .

وكانت معانيه دائما كالمـــاء الصافى الزلال فى بلور الاناء ومهما تشكل المـــاء بلون الاناء بحسب الزمان والمكان فهو هو نفس المـــاء الذى لا يتغير لونه ولا ينضب معينه ولا يتسنه طعمه ويظـــل هو نفس القرآن الذى لا تبلى على الزمان جدته ، ولا تنقضى عجائبه ولا يخلقه طول الرد كما قال الرسول عليه الصلاة والســـلام . ذلك أنه من العمق والاتساع ومن العموم والشمول بما يقبـــل تفهم البشر له أيا كان مبلغهم من العلم وبما يفى بحاجاتهم فى كل عصر ويتجاوب فى يسر مع فهم اهل البداوة لأنه لا يلتوى عـــلى الأفهام ، ويبهر فى عمقه اهل الحضارة الذين صعدوا فى ســـلم التقدم والرقى وبرعوا فى فنون العلم والمعرفة لانه يزخر كمـــا

يزخر البحر وفى قاعة الدر واللآلىء لمن استطاع الغوص اليها .

احتوى من الآيات الكونية ما ينبه الأذهان ويوجه النظر الى البحث والتنقيب واستكناه حقائق الأشياء واستكشاف أسرار الكون وتطبيقها فيما ينفع واستغلال ثروات الارض وما أودعها الله من كنوز وقوى كونية .

ومن أوضح سمات القرآن الكريم التى لفتت نظر الباحثين فى القرآن من المسلمين وغير المسلمين اشادة القرآن بالعقل وتوجيه النظر الى استخدامه للوصول الى « الحقيقة » فقد دعا القرآن بطريق مباشر وغير مباشر الى تعظيم العقل والرجوع اليه .

ويحرص القرآن على تأكيد هذا المعنى حتى أنه ليكرر هذه الدعوة بشكل يلفت النظر ويثير الاهتمام ويشير القرآن الى العقل بمعانيه المختلفة مستخدما لذلك كل الألفاظ التى تدل عليه أو تشير اليه من قريب أو بعيد من « التفكر » و « القلب » و « الفؤاد » و « اللب » و « النظر » و « العلم » و «التذكر» و « الرشد » و « الحكمة » و « الرأى » و « الفقه » الى غير ذلك من الألفاظ التى تدور حول الوظائف العقلية على اختلاف معانيها وخصائصها وظلالها . مما يعتبر ايحاءات قوية بدور العقل وأهميته بالنسبة للانسان .

وقبل آن ندخل فى بعض التفاصيل نلقى نظرة احصائية على عدد من الكلمات الموحية أو الدالة على العقل أو التى لها ارتباط به أو بوظيفته ، فى القرآن الكريم :

العقــــــل :

وردت مادة « عقل » بصيغة المضارع (يعقلون ، تعقلون ، يعقل ، نعقل) فى خمسين آية من آيات القرآن ووردت بصــيغة المــاضى فى آية واحدة « من بعد ما عقلوه » .

التفكير :

ووردت مادة « التفكر » بصيغة الفعل المضارع فى سبع عشرة آية وبصيغة المــاضى فى آية واحدة « انه فكر وقدر » .

الفقــــه :

ووردت مادة « الفقــه » فى عشرين آية بصــيغة المضــارع « يفقهون » وتفقهون « تفقة » .

الذكر :

ووردت مادة « الذكر » فى ثلاث وسبعين ومائتى آية بصيغتها المختلفة المــاضى والمضارع والأمر والمصــدر ــ المجرد والمزيد والمضعف والمبنى للمجهول والمبنى للمعلوم وكلها ذات صلة بالمعنى المراد . ولا يدخل فى ذلك ما ورد تحت هذه المــادة مما له صلة بمعنى الذكورة (ضد الأنوثة) .

مدكر :

ومدكر من صيغ الذكر أو التذكر ووردت ٦ مرات فى ست آيات فى سورة القمر ، بصيغة واحدة،ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر .

الـــرأى :

ومادة « رأى » فى القرآن كثيرة منها « رأى » البصرية ومنهـــا « رأى » العلمية ومنها ما يحتمل الوجهين . غير أننى وجدت أن « رأى » التى لها صلة بالتفكر ــ موضوع بحثنا ــ واضحة بصفة قاطعة فى كل ما أستفهم عنه بالهمزة كقوله تعـــالى « الم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه »،« ألم تر الى ربك كيف مد الظل » « افلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها » ، « أو لم يروا الى الطير » ، « أفرأيتم الماء الذى تشربون » وهكذا ويزيد عدد الآيات التى وردت فيها « رأى التفكيرية » عن ثمانين آية فى مختلف سور القرآن الكريم .

التـــــدبر :

وورد التدبر فى أربع آيات فى القرآن :

وهى بصيغة المضارع « افلا يتدبرون القـــرآن » « أفلم يدبروا القول » « مبارك ليدبروا آياته » .

القلب :

ووردت كلمة « قلب » فى ستة وعشرين ومائة آية . جاءت مفردة حينا ، كقوله تعالى « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » وجمعا حينا آخر كما فى قوله تعالى « لهم قلوب لا يفقهون بهـــا » كما وردت مضـــافة الى الضمائر كقوله تعالى « فانه آثم قلبه » « ولكن ليطمئن قلبى » و « ربطنا

على قلبها » و « فانه نزله على قلبك » و « بما كسبت قلوبكم » و « ولكن قست قلوبهم » .

أولوا الألباب :

ووردت كلمة الألباب ست عشرة مرة فى ست عشرة آية كلها مقرونة « بأولى » أو « أولو » وقد جاءت مسبوقة بياء النـداء نحويا أولى الألباب . وبمادة التذكر نحو « ذكرى لأولى الالباب » « انما يتذكر أولوا الالباب » وبكلمة « عبرة » نحو « عبرة لأولى الالباب » وبالضمير نحو « هم أولوا الالباب » .

الابصـــار :

و « ابصر » مثل « رأى » لها معنى حقيقى وهو الرؤية بالعـين الباصرة ومعنى مجازى وهذا يتصل بالفكر أو التفكر والابصـار بالمعنى الأخير ورد فى القـرآن اكثر من أربعين آية نحو « أفـلا تبصرون — أم أنتم لا تبصرون — ولكن لا تبصرون — تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وفى آيتين سبقت « بأولى » وهى قوله تعـالى « فاعتبروا يا أولى الابصار » وقوله أولى الأيدى والابصـار » ولا يدخل فى ذلك ما جاء على وزن فعيل (بصير) منسوبا الى الله تعالى نحو « خبير بصير » وقد وردت هذه فى أكثر من أربعين آية اخـرى .

النهى :

و « النهى » معناها « العقـل » وقد وردت فى آيتين بصيغة واحدة « ان فى ذلك لآيات لاولى النهى » .

الرشـــــد :

و « الرشد » من المعانى ذات الصلة بالعقل . وقد وردت فى القرآن فى تسع عشرة آية بصيغ مختلفة منها المضارع « لعلهم يرشدون » والمصدر الرشد والرشاد مثل : « وهيىء لنا من امرنا رشدا » و « قد تبين الرشد من الغى » و « أهديكم سبيل الرشاد » ومنها صيغة رشيد كفعيل نحو « وما أمر فرعون برشيد » .

العـــلم والعـــلماء :

ومادة « العلم » من أكثر الكلمات شيوعا فى القرآن هو فيمـــا عدا صيغ « العالمين وعليم » ومعلوم واعلام ورد العلم بصـــيغة المضارع والمـــاضى فى حوالى أربعين وخمس مائة آية . ووردت كلمة « العلماء » فى موضعين هما قوله تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » وقوله تعالى « يعلمه علماء بنى اسرائيل » .

الفـــؤاد :

ووردت كلمـــة « الفؤاد » و « الأفئدة » فى القرآن الكريم فى ست عشرة آية .

الحكـــمة :

وردت كلمة « الحكمة » فى تسع عشرة آية هذا عدا كلمـــة « حكيم » المنسوبة لله والتى وردت فى اكثر من ٩٠ آية فى القرآن الكريم .

عبرة :

وردت بصيغة الامر فى آية واحدة « فاعتبروا يا أولى الابصار » وبصيغة المصدر « عبرة » فى ثلاث آيات « ان فى ذلك لعبرة » « وان لكم فى الانعام لعبرة » .

هذه هى بعض الالفاظ التى وردت فى القرآن الكريم مما له صلة وثيقة بالعقل والتفكير والعلم وهى فى مجموعها تكون دائرة واحدة يتصل معناها جميعا بالعقل ووظائفه فى أوسع معانيه . هـذا ، وكلمة العلم التى وردت فى القرآن فى أربعين وخمسمائة آية ليس المقصود بها فى القرآن (علم الدين) وحسب وانما قصد بها كل علم نافع ، يرفع من قدر الانسان وينمى مواهبه العقلية ويجعله اكثر خبرة ومعرفة بأمور الدنيا واستفادة منها وافادة بها .

نزل القرآن بين العرب وباللغة العربية الفصحى ، وكان العرب عند نزول القرآن مختلفين فى عقائدهم ومعتقداتهم اختلافا كبيرا . منهم المشركون عبدة الاصنام ومنهم من كان يعتنق النصرانيـة او اليهودية ومنهم الاحناف الذين ترجع عقيدتهم الى ملة سيدنا ابراهيم عليه السلام . ومن هؤلاء وأولئك من كان يتطلع الى دين جديد . ونبى جديد ، ولكنهم لا يدرون من أى قبيلة سيكون ذلك النبى وبأى دين سيأتى غير أن رأيا عاما كان منتشرا بينهم بقرب مقدم النبى الذى تحدثت عنه الكتب السماوية وملأ خبره أرض الجزيرة العربية .

ولقد حدثنا القرآن عن هذه الانماط المختلفة من العرب ذوى العقائد المتباينة وخاطبهم جميعا .

وعلى الرغم من وجود هـــذه المعتقدات والآراء الا أن التاريخ لم يثبت أن هذه المعتقدات والآراء كانت تقوم على منهج عقـلى او فلسفى واضح ولم يتح للعرب أن يبلوروا هذه المعتقدات فى فلسفة فكرية ذات قواعد واضحة محددة .

بل كانت قاعدتهم الفكرية هى « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » وهذه القاعدة من شأنها ان تحجر على الفكر والنظر والبحث والتأمل . وبالتالى توقف النمو العقلى الذى يعين على الوصول الى الحقائق المتصلة بالكون والحياة .

ولهذا كانت مهمة القرآن هى العمل على ابطال هذه القـــاعدة وغرس ما من شأنه أن يدعو الى استعمال العقل والتدبر والتأمل. حتى تزول تلك الحجب الكثيفة التى تحول بين العقـــل والرؤيا الصحيحة للأشياء وليخلق أمة جديدة تعلى من شأن العقـــــل وتستخدمه فى مختلف شئونها وتفتح أمامه آفاقا غير محــــدودة لاستكناة حقائق الوجود .

منهج الإسلام فى تحرير العقل والفكر

ولقد أقام الاسلام منهجه فى تحرير العقل والفكر على دعائم ثلاث :

الدعامة الاولى :

تحرير الانسان من أغلال الحجر العقلى وسيطرة التبعية العمياء وتربيته على حرية الفكر واستقلال الارادة ليكمل بذلك عقله ويستقيم تفكيره وتكتمل له شخصيته وانسانيته ، فان كمال العقل واستقامة التفكير واستقلال الارادة هى أساس صحة العقائد واستقامة التدين ومعرفة الحق الذى يجب أن يتبع ومعرفة الباطل الذى يجب أن يجتنب كما يشير الى ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه الى هدى ويرده عن ردى » وما تم ايمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله .

وقد عنى الاسلام ببناء هذه الدعامة عناية كبرى .

فجعل البرهان أساس الايمان الصادق والعقيدة الصحيحة وبين ان كل اعتقاد او عمل لا يقوم على دلائل الحق فهو مردود على صاحبه وأنذر الذين يجادلون فى الله وآياته بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير كما فى قوله تعالى : « ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون » « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق . »

وكشف عن ضلال القادة الدينيين الذين انحرفوا عن العهود والمواثيق المأخوذة عليهم وافتروا على الله الكذب ، وانتحلوا لأنفسهم حق التشريع والتحليل والتحريم ارضاء لأهوائهم واشباعا لشهواتهم . وتلبيسا على الناس فى دينهم كما فى قوله تعالى : « واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون » « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع قليل ولهم عذاب أليم » . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » . ودعاهم الى كلمة الحق التى يستجيب لها كل ذى قلب سليم وعقل رشيد والتى لم يختلف فيها نبى مرسل ولا كتاب منزل ، كما قال تعالى « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وطالب كل ذى عقل بالنظر فى عوالم السموات والارض ومافيها من الدلائل الواضحة على وحدانية الله تعالى فى الوهيته وربوبيته كما فى قوله تعالى : « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شىء » « قل أنظروا ماذا فى السموات والارض ».

« أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت » « وفى الارض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

واستنهض العقول ووجه الافهام وأيقظ الحواس ونبه المشاعر بالتعقيب على بيان الآيات الكونية والتشريعية بمثل قوله تعالى : « ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »،« ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون»، « ان فى ذلك لآيات لأولى النهى »،« ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون» « ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » ، « انما يتذكر أولوا الألباب ».

وبشر الذين يستمعون القول فينظرون فيه نظر الناقد البصير ويتبعون منه ما يدل على الحق ويهدى الى الرشد كما قال تعالى « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » .

وذم الغافلين ونعى عليهم غفلتهم واعراضهم عن دلائل الآيات الكونية التى يشاهدونها فى كل لحظة وهم عنها غافلون وتطالعهم بدلائلها فى كل آونة وهم عنها معرضون كما فى قوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى

الصدور » « ولقد ذرانا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم اضل أولئك هم الغافلون » « وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

وعاب على أسرى التقليد اعراضهم عن الحق الذى جاءت به أنبياء الله ورسله وجمودهم على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم وارتكابهم الفواحش باسم الدين تعصبا للجمود والتبعية العمياء كما قال عز وجل : « واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا اولو كان آباءهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ، « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله امرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون » .

وبين لهم عاقبة التبعية العمياء ومدى جنايتها عليهم كما قال تعالى : « يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » .

فالتقليد الاعمى من شر ما تبتلى به الافراد والجماعات لانه يميت مواهب الفكر والنظر ويوجب جمودها وركودها ولا يميز بين

الحق والباطل ولا بين الصواب والخطأ ولا يفرق بين التقليد فىالخير والتقليد فى الشر ، ويحمل أهله على الاعراض عن الحق ومعـــادة أهله والوقوف فى طريق الاصلاح والمصلحين والجمود على العقائد والمذاهب الموروثة والتعصب الجماعى لحمايتها لأن قيام العقائد على أساس الوراثة وتقليد الآباء والأجداد يضفى عليها قداســـة تستحوذ على عواطف الوارثين لها وتصرفهم عن التفكير فى صحتها أو بطلانها وتدفعهم الى التعصب الجماعى لحمايتهـــا والابقـــاء عليها ومعارضة كل اصلاح جديد يخالفها أو ينتقص من قداستها وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الحقائق فى آيات كثيرة كقوله فى شأن معاداة الامم المـــاضية لدعوة رسلهم « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما أرسلتم به كافرون » ، وقوله فى شأن معاداة قريش للدعوة المحمدية « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، اجعل الالهة الها واحدا ان هذا لشىء عجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشىء يراد » .

وهكذا يفعل التقليد الاعمى وتقديس المعتقدات القائمة عـــلى الوراثة فهؤلاء كانوا يعرفون الرسول حق المعرفة ويعلمون صدقه، وأمانته حق العلم ، ولكن التعصب الجماعى القائم على التقليـــد الاعمى وتقديس ما وجدوا عليه آباءهم حملهم على أن يعجبوا من دعوته ويتنكروا لها ويقولون فيه وفى دعوته ما حكاه القرآن عنهم.

وهذه الحقيقة التى قررناها وهى أن قيام المذاهب والعقائد على أساس الوراثة والتقليد الاعمى يضفى عليها دراسة تستحوذ على عواطف الوارثين لها وتصرفهم عن التفكير فى فسادها وبطلانها وتحملهم على التعصب الجماعى لحمايتها من كل دعوة تخالفها أو تنتقص من قداستها ، هى السر فى تمسك الأمم والطوائف بالعقائد والمذاهب الموروثة وجمودهم عليها وان كانت لا تستند الى نظر صحيح ولا تقوم على أساس من الحق وقصارى ما تعتمد عليه هو التقليد القائم على التبعية العمياء وتقديس مواريث الاباء والاجداد.

وبهذه الدعامة قضى الاسلام على سلطة المتألهين من أصحاب القيادات الضالة المضللة وخلع عنهم رداء القداسة التى انتحلوها لأنفسهم وموهوا على الناس بأنها رفعتهم فوق النقد والتجريح وجعلتهم أربابا من دون الله يحلون ويحرمون كما يشتهون ، وأجرى عليهم من أحكام المسئولية والجزاء ما اجراه على سائر الافراد وبين أن ربوبية العبادة والتشريع انما هى حق خالص لله وحده ، وأهاب بأسرى التقليد والتبعية العمياء أن يحرروا أنفسهم من هذه الاغلال الجاثمة على عقولهم وأفهامهم وتلك الاكنة المعقودة على أسماعهم وأبصارهم .

وقرر حق الانسان فى حرية الفكر واستقلال الارادة وفتح له طريق التحرر الفكرى والاستقلال الارادى وبوأه المنزلة اللائقة بانسانيته وكرامته وعرفه أن الله تعالى لم يخلقه عبدا يقاد كما تقاد الانعام ، ولا جعل لمخلوق حق السيطرة على عقله وفكره

وانما خلقه حرا مالكا قياد نفسه وعبدا خاصا لربه ، يفكر بعقله ويسترشد بمواهبه ويعمل باختياره وارادته ويهتدى بنور العلم فى اختياره وعمله ولا يظهر بمظهر العبودية الا لخالقه ، ولا يدين فى عقائده وسلوكه الا بدين الحجة والبرهان .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أوضح حقيقتين قد يقع الخلط فى فهمهما :

أما الحقيقة الاولى : فهى أن التقليد الذى ذمه الاسلام وشدد النكير على أهله والذى سبق بيان مفاسده وآثاره السيئة فى الافراد والجماعات انما هو التقليد الذى يقوم على التبعية العمياء والجمود على القديم الموروث ومحاربة كل جديد يخالفه ولو كان ذلك الجديد اقوم طريقة واهدى سبيلا ، والذى لا يميز بين التقليد فى الخير والتقليد فى الشر ولا يفرق بين اتباع أهل الحق من الائمة الراشدين والقادة المصلحين واتباع أهل الباطل من أصحاب القيادات الضالة والأهواء الجامحة ، هذا هو التقليد الذى ذمه الاسلام وشدد النكير على أهه وأما تقليد أهل الحق من الائمة الراشدين والعلماء الراسخين الذين استمدوا علومهم ومذاهبهم من هدى الكتاب والسنة واستقاموا على الطريقة المثلى والمحجة البيضاء فليس من قبيل التبعية العمياء التى لا تنظر ولا تفكر فيما تقلد وانما هو من قبيل القدوة الواعية المستبصرة واتباع غير العالم لأهل العلم والمعرفة كما يرشد الى ذلك قوله تعالى فى سورة النحل : « فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » وقوله صلى

الله عليه وسلم فى حديث العرباض بن سارية « فانه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين » . فطريق العصمة من ضلال الرأى وطغيان الهوى والنجاة من شرور التفرق والاختلاف والخروج من ظلمة الجهل ومضلته ، هو الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ، وسؤال أهل العلم الذين عرفوا بالرسوخ والامانة فى العلم والاعتدال فى القصد والتفكير .

وأما الحقيقة الثانية :

فهى أن حرية الفكر التى جعلها الاسلام رائدا للتفكير الدينى ونبراسا للعقول والأفهام فى الاهتداء الى معالم الحق ، هى الحرية التى تطلق العقول والافهام من أغلال الحجر العقلى والكبت الفكرى ، وتحررها من سيطرة التقليد والتبعية العمياء وتجلى لها معالم الحقائق التى كانت محجوبة عنها ، وتجعل قيادة التوجيه قيادة بناء واصلاح وارشاد لا قيادة هدم وافساد وتضليل وتستمد مقوماتها العلمية من هدى الاسلام وتعاليمه ونضوج العقل واستقامة التفكير والاعتماد على قضايا الحق والمنطق وتحكيم الحجة والبرهان ، وتجرى فى فهم نصوص الكتاب والسنة والاستنباط منها والاستدلال بها على قوانين النظر والاستدلال وأوضاع اللغة العربية وخصائص دلالتها ، اذ لو وكل الامر فى ذلك الى الناس يفهمونها ويستنبطون منها كما يريدون ويشتهون لاختلت موازين الصواب والخطأ ، فى الفهم والاستنباط وغابت

الحقائق عن الأفهام فى غمرة الاهواء لأن العقول والأفهام متفاوتة والاهواء والنوازع متحكمة والكملة فى كل زمان ومكان قليلون .

هذه هى حرية الفكر التى نادى بها الاسلام وجعلها نبراس العقل ورائد الفكر .

الدعامة الثانية :

تحرير الانسان من اصفاد الجهل وظلمته فان الجهل يقتل مواهب الفكر والنظر ويطفىء نور القلوب ويعمى البصائر ويميت عناصر الحياة والقوة فى الامم ويفسد على جماهير الناس مناهج الدين والتدين فانه هو الذى يجعل النفوس مستعدة لقبول ما يحدث فى الدين من خرافات وبدع لأن اهل الأهواء والبدع الذين يظهرون بين الناس بمظهر العلماء والزعماء الدينيين يجدون فى الجهل بتعاليم الدين مجالا واسعا لنشر الخرافات والبدع باسم الدين ويسارع أكثر الناس بدافع الجهل والثقة العمياء الى اعتناقها ويعملون بها على انها من الدين وهم لا يعلمون أن الدين منها براء ولقد عنى الاسلام ببناء هذه الدعامة عناية كبرى « فذم الجهل والجاهلين فى مواطن كثيرة كما فى قوله تعالى : « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » . « افحكم الجاهلية يبغون ، ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون » ، « قل افغير الله تأمرونى اعبد ايها الجاهلون » « فلا تكونن من الجاهلين » « انى أعظك ان تكون من الجاهلين » .

وانحى باللائمة على الذين يتبعون الظنون والأوهام فى عقائدهم وتدينهم كما فى قوله تعـالى : « ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » . « وما يتبع اكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ان الله عليم بما يفعلون » « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

وعظم شأن العلم وحث على طلبه ، كما فى قوله تعالى : بل هو آيات بينات فى صدور الذين اوتوا العلم » « وقل رب زدنى علما » وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ويلهمه رشده » ، « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة ».

ونوه بفضل الحكمة وما فيها من الخير الكثير كمـا فى قوله تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « لا حسد الا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس » . ورفع منزلة العلمـاء وجعلهم أهل خشيته وقرن شهادتهم بشهادته تعالى وشـهادة ملائكته كما فى قوله تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . « انما يتذكر أولوا الألباب » « انما يخشى الله من عبـاده العلماء » « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم » .

وجعلهم ينابيع العلم وموارد العرفان ، ورواد الحق ودلائل الهدى كما فى قوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون» وخصهم بالتعقل والفهم فى مقام ضرب الأمثال وبيان آيات الله الكونية كما فى قوله تعالى « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين » .

وهكذا عرف المسلمون الأولون منزلة العلم وفضله وأدركوا مبلغ الحاجة اليه فى تدينهم وبناء مجتمعاتهم ودعم سلطانهم وانه هو الذى يوضح لهم معالم السير على النهج القويم ، ويفتح لهم آفاق الحياة العزيزة الكريمة ويكشف لهم عن أسرار العوالم الكونية ونواميسها . ويقيم لهم وسائل الحياة والقوة ويبنى لهم قواعد السيادة والمجد . عرفوا كل هذا فوجهوا عزائمهم الى طلب العلوم على اختلاف أنواعها ولم يشغلهم عن طلبها ترف الحضارة ونعماؤها ، ولاثنت عزائمهم عنها بأساء الحياة وضراوتها وبحثوا عنها فى آيات الله التشريعية وآياته الكونية وأقاموا لها فى كل قطر اسلامى منارا عاليا وحملوا مشاعلها ، الى مشارق الأرض ومغاربها . ولم يقفوا بجهودهم عند نتاج عقولهم وافهامهم بل اتجهوا بها أيضا الى علوم السابقين فاستخرجوها من زوايا الاهمال والنسيان وأخذوا ابريزها بعد أن زادوه نقاء وصفاء وردوا زائفها بعد ان بينوا زيفه وفساده ، لأنهم كانوا يطلبون هذه العلوم طلب الناقد البصير لا طلب التابع المقلد ، واكتمل لهم من ملكات

العلوم والفنون فى جيل واحد . ما لم يكتمل لأمة من الأمم الناهضة فى عدة أجيال وفى ذلك يقول بعض المؤرخين الاجتماعيين من علماء الغرب : « ان ملكة الفنون لم يتم تكوينها فى أمة من الأمم الناهضة الا فى ثلاثة أجيال : جيل التقليد وجيل الخضرمة وجيل الاستقلال والاجتهاد الا العرب وحدهم فقد استحكمت لهم ملكة الفنـــون فى الجيل الأول الذى بدأوا فيه بمزاولتها » .

وأن تعجب لهذه النهضة العلمية التى تخطت مراحل النهوض فى الأمم فعجب انهم قاموا بها على رغم الأحداث العاتيـــة التى حملوا أعباءها والحروب الطاحنة التى خاضوا غمارها لان الاحداث والخطوب وان بلغت من العنف ما بلغت لا تستطيع أن تقف فى طريق العقائد التى انطوت عليها القلوب وانفعلت بهـــا النفوس ولا أن تمنع العزائم القوية من الوصول الى أغراضها وأهدافها .

وبهذه النهضة العلمية استطاعوا أن يعملوا عمل الاقوياء لدينهم ووطنهم ، لان العمل لبناء المجتمعات القوية فى دينها ودنياها لا يصدر الا عن ارادة قوية دافعة والارادة القوية الدافعة لا تنبثق الا من العلم فالأمة التى أفقدها الجهل قوة الارادة وصدق العزيمة لا يمكن أن تعمل لدينها ولا لوطنها .

الدعامة الثالثة :

تحرير الانسان من طاعة الاهـــواء والانقياد الاعمى لوحيهـــا لان طاعة الاهواء من اقوى عوامل انحـــراف الانسان فى سلوكه

والتوائه فى نظره وتفكيره وضلاله فى عقائده وتدينه فان الهوى ما دخل فى شأن من شئون الدين والدنيا الا افسده .

فعباد الاهواء لا تسلم لهم طوية ولا يستقيم لهم رأى ولا تعتدل لديهم موازين الحكم ، ولا يخضعون لحق ليس فى جانبهم كأن الحق تابع لاهوائهم وأغراضهم فاذا سألوا عن حكم شرعى او رأى مصلحى سألوا عنه وصدورهم منطوية على هوى دفين فان اجابهم المسئول بما يوافق ما انطوت عليه صدورهم رضوا وقبلوا وان أجابهم بما لا تهوى انفسهم سخطوا واعرضوا واذا حاول اقناعهم بالتى هى احسن ركبوا رؤوسهم ولجوا فى عتو ونفور ودخلوا معه فى جدال عنيف لا يقف عند حد ونقاش عقيم لا ينتهى الى غاية لانهم ليسوا طلاب حق يخضعون له ويسلكون سبيله وانما هم أصحاب هوى ، يسيرون وراءه ويبغون تحقيقه .

ولهذا عنى الاسلام بالتحذير البالغ من اتباع الهوى والانقياد الاعمى لوحيه فذم العاكفين على عبادة الاهواء والاغراض ونعى عليهم ضلالهم وانحرافهم عن الحق ارضاء لاهوائهم كما فى قوله تعالى « ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس » « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » « فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدى القوم الظالمين » وقوله صلى

الله عليه وآله وسلم : لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » . « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه » .

وهكذا طالبنا الاسلام بأن نطهر نفوسنا وسلوكنا من الاغراض الخفية والاهواء الدفينة ونحرر عقولنا وافهامنا من الخضوع لسلطانها والانقياد الاعمى لوحيها وان نجعل أهواءنا تبعا لحكم الله وشرعه لا أن نجعل احكام الله تبعا لاهوائنا فان ذلك من أكبر العوامل فى اعتدال النظر واستقامة التفكير وصحة العقائد وكمال الاخلاق وصلاح الاعمال .

من الدعائم الحضارية

وان من يغوص وينعم النظر فى أعمـــاق الحضارة الاســـلامية وما حققته للانسانية من اسباب النمو وعوامل الازدهار ووسائل التقـــدم ويلم بما جاء به الفكر الاســـلامى من مفاهيم تناولت اهم معضلات الحياة ووسائل النجاح والتقدم .

ان من يتعمق فى ذلك ويلم به يدهشه مدى عمق التفكير الواعى الذى بلغ ذروته علماء الاسلام ويتضاعف اعجاب الباحث بهذا الفيض الزاخر من الجهـــود العلمية العظيمـــة التى ملأت الدنيـــا بنورها واشراقهـــا .

وتزداد دهشة الباحث والمفكر ويتعاظم تمجيده لحركة التحول الخطيرة التى اصابت المجتمع العربى فى تلك الفترة القصيرة فيروح الباحث والدارس يتساءل .

ترى أى سر هذا الذى استطاع أن يحول عرب الصحراء الى اساطين فى العلم ومشاعل فى الحضارة وأفذاذ فى المعرفة ومنارات فى الثقافة وأى قوة رفعت العرب من حال البداوة والتى كانوا عليها الى ابطال وقادة يفتتحون أعظم الممالك وأوسعها . ويجولون الدنيا غير هيابين ولا وجلين .

قالت الكاتبة الالمانية الدكتورة سيجريد هونكه : ان هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحراء من العدم من اعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى .

وليس من المعقول فى نظر المفكر ولا من المقبول فى نظر الباحث ولا من المعروف فى نظر الدارس أن يطفر الفكر العربى الذى قيدته ظروف الحياة القبلية الآسنة البيوس ، الى مثل هذه المرتبة العالية دون أن تكون هناك الاسباب القوية التى دفعت به الى الحيـــاة المتحركة دفعا فما هى تلك الاسباب التى استقى منها الفكر العربى الاسلامى مادة حيويته وتطوره وما هى الموارد التى نهل منهـــا أسباب تكامله وقوته .

ان المنبع الاول والاصيل الذى استقى منه الفكر العربى اسباب تقدمه هو القرآن الكريم وذلك أن القرآن لم يكن كتاب دين يحث على العبادة والتوحيد لله والتقرب اليه فحسب وانما كان القرآن الى جانب تأكيده وحدانية الله وما يتبعها من عقائد وعبادات وأوامر ونواه كان دستورا من أعظم الدساتير الصالحة التى عرفتهـــا الانسانية فى تاريخها الطويل الممتدد عبر الزمن وذلك بما تضمنه من القواعد الرصينة الكفيلة بقيام المجتمع الانسانى السليم .

ولقد كان أو ل أثر من آثار القرآن فى الفكر الانسانى اهتمامه الواسع بالعلم وذلك ان العلم عنوان التقدم ومرآة نهضة الامم وعنوان حضارتها . فقد كانت عناية القرآن بالعلم تفوق حد الوصف تأمل القرآن وتدبر آياته تجده يدعو الى تحكيم العقل والمنطق فى مظاهر الكون وأحداث الماضى ، والقرآن نفسه مشتق من القراءة . والقراءة أدنى مفاتيح العلم للانسان وأول ما نزل على محمد عندما كان يتحنث فى غار حراء خمس آيات هى قوله تعالى « اقرأ باسم

وربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » .

ففى هذه الآيات الخمس بدأ الوحى الالهى بالقراءة فى أول آية وكررها مرة أخرى فى الآية الثالثة وأوضحها مؤكدا ما رمى اليه من معنى وهو التعليم وزاد التأكيد بذكر القلم . ثم لفت النظر الى الاصل الذى خلق الله منه الانسان وهو العلق وفى قوله تعالى « علم الانسان ما لم يعلم » ما فيه من مكنون أسرار هذا الكون مما سيعرفه الانسان عبر مسيرته فى هذه الحياة وحتى نهايتها .

وأول قسم فى القرآن اقسم به رب العزة فى ثانى آية نزلت بعد الامر بالقراءة صدر بحرف من حروف الهجاء وكان بالقلم وبما يسطر العالمون « ن والقلم وما يسطرون » فأول سورة نزلت من القرآن سورة العلق ومن العلق يخلق الانسان وكانت السورة التالية فى النزول لسورة العلق هى سورة القلم . وبالقلم يكتب ويتعلم الانسان .

فانسانية الانسان لا تكون الا بالخلق ولا تتم الا بالعلم « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان » .

وما الطف قول الشاعر :

اذا افتخر الابطال يوما بسيفهم وعدوه ما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب مجدا ورفعة مدى الدهر ان الله اقسم بالقلم

والقرآن دائما يهتف بالانسانية . « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » والقرآن يرفض أن يقف بالعلم عند حد بل يفتح له باحة ليس لهـا نهاية .

ولقد وضع الاسلام القواعد لوزن المعلومات . وتمييز صحيحها من زائفها فقرر ان المسائل لا تأخذ طابعا علميا ولا ترتقى الى درجة معلومة الا اذا قامت عليها بينة واستندت الى دليل ومن ثم كان القرآن ينادى دائما « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » « ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم » « ولا تقف ما ليس لك به علم أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

وهذه الآية الاخيرة تنهى عن اتباع ما لم يقم به علم يستند الى حجة سمعية أو رؤية بصرية أو براهين عقلية وهى طرق الاستدلال التى تنحصر فى العقليات والسمعيات والمحسوسات .

وهذا الميزان الذى وضعه الاسلام يدفع الناس دفعا الى تلمس الأدلة . ويمشى بهم فى طريق النور والمعرفة ومظاهر الكون والرقى قال تعالى « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون » « فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » .

ووجه القرآن نظر الانسان الى الارض مصدر الحياة (فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم » .

ودعا القرآن ان يمعن الناس فكرهم فى هذا الكون الفسيح ويمعنوا النظر فيما حوى من عجائب . ليستغلوا ما حواه من موارد، ويستكنهوا أسراره وأسباب الحياة فيه قال تعالى « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق » .

« فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله » « قل انظروا ماذا فى السموات والارض » ولم يكتف القرآن بهذا بل ردد كلمة (العلم) بجميع اشتقاقاتها وتصريفها فى سوره وآياته زهاء سبعمائة وخمس وستين مرة وهذا وحده يكفى لتقدير المنزلة التى رفع القرآن «العلم» اليها وكلمة العلم فى الاسلام عامة تشمل مختلف قطاعاته وتعدد أغراضه ومراميه .

وهذا كله دليل على أن الشخصية الانسانية لا يرقيها شيء غير العلم « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

وهذه ايحاءات القرآن لتنمية القوى العقلية المؤدية الى النظر فى البراهين الدالة على قدرة الله سبحانه وتعالى الداعية الى التفكير والتأمل فى هذا الكون العجيب الذى يمتلىء بالظواهر الطبيعية التى تسير فى نظام ودقة عجيبين .

- يقول الله تعالى « ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون . وله من فى السموات والارض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو اهون عليه وله المثل الاعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم . ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » .

« هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » .

« أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والارض مددناها والقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد — رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » .

« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شىء » .

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » .

« افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت . والى السماء كيف رفعت . والى الجبال كيف نصبت . والى الارض كيف سطحت . فذكر انما أنت مذكر » .

« نحن خلقناكم فلولا تصدقون . أفرأيتم ما تمنون ؟ أانتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون . أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشـــاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون أنا لمغرمون . بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه اجاجا فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التى تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم » .

فى هذه الآيات الاخيرة استدلال على العقيدة كلها وقدرة الله على الخلق والبعث بمادة تقع تحت حس البشر . يعرض النشأة الاولى والموت وامكان البعث بنفس الطريقة ويضرب المثل بالزرع والمطر والنار . ولو شاء الله ما نبت الزرع ولا أثمر ولا نزل الماء ولا تقدت النـــار .

وقد طاف بنا القرآن الكريم فى الآيات السالفة فى أنحاء هذا الكون الكبير الذى لا يعلم مداه الا صانعه وتتبع مظاهر الطبيعة على وجه هذه الارض التى نعيش عليها بما فيها من جبال وبحار وانهار وينابيع

ونبات وأشجار وحيوان وفواكه تسقى بماء واحد وتفضل بعضها على بعض فى الاكل .

ووضح لنا القرآن كيفية تبدل الارض وتغيرها عندما ينزل عليها المـــاء فتهتز وتربو أى تنبت من كل زوج بهيج .

وفى الكون العلوى تحدث القرآن عن ملكوت السماوات ـ تحدث عن الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم (وكل فى فلك يسبحون) .

وتتسم الآيات التى تناولت مظاهر الطبيعة بلفت النظر والاعتبار بما فيها بداية أو نهاية . فكثيرا ما تصدر الاية بقوله تعالى أو لم يروا .

« أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة » .

« ألم تر ان الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه » .

« ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار » .

« أو لم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز » .

ولكى نعطى صورة تقريبية لمدى اهتمام القرآن بمظاهر الطبيعة وتوجيه النظر للتفكير والتأمل والبحث فيها ، نورد احصاء لبعض هذه الظواهر التى رددها القرآن فى كثير من آياته :

ذكر القرآن الكريم « الارض » فى أكثر من ثمانين وأربعمائة آية وذكر السماء مفردا وجمعا فى مائتى آية وذكر النهار فى خمسين موضعا ، وذكر البحر فى أكثر من أربعين موضعا وذكر الجبال فى

أكثر من خمسة وثلاثين موضعا والانعام فى ثلاثين موضعا وذكر الريح والرياح فى أكثر من خمسة وعشرين آية والظلمات فى عشرين آية والنجم فى ثلاث عشرة آية ، والنخل آية ، والنطفة فى اثنى عشرة آية .

لم يكن تكرار تلك الالفاظ عبثا وانما جاء فى كل آية باشارات خاصة وايحاءات ومناسبات تختلف كل واحدة فيها عن الاخرى .

وهذا مثال للجوانب التى تحدث فيها القرآن عن الارض فى بعض الآيات التى وردت فى القرآن :

« حتى اذا أخذت الارض زخرفها ـ وأشرقت الأرض بنور ربها ـ وألقت ما فيها وتخلت ـ وأخرجت الارض أثقالها » « وضعها للأنام ـ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ـ فتصبح الارض مخضرة ـ وفجرنا الارض عيونا ـ اذا زلزلت الارض زلزالها » .

وهكذا لو حاولت تقصى المناسبات التى ذكرت فيها هذه الظواهر والاسرار التى ذكرها الله بشأنها لما وسعك الزمن . وصدق الله العظيم . « ولو انما فى الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » .

الحضارة الإسلامية

يمتاز الاسلام بأنه دين حضارة بمعنى انه كان منذ نزوله دين عبادة ودين معاملة وانه أنشأ لونا من الحضارة عرف باسمه وهو الحضارة الاسلامية ومفهوم كلمة الحضارة مفهوم تطور مع الزمن لا سيما فى تاريخ الحياة العربية الاسلامية والمفهوم الاصيل لكلمة الحضارة فى اللغة العربية انها : تعنى حياة الحضر والاقامة الثابتة فى المدن والقرى وعكسها (البداوة) وهى حياة التنقل فى البادية ولقد عرف العرب الفارق بين حياة البادية وحياة الحضر منذ ، كانت بادية وكان حضر .

ولكن أول من تصـــدى لهذا التمييز على أساس من الدراســـة والتسجيل والتحليل العلمى هو عبد الرحمن بن خلدون بل ان هذا العالم العربى هو أول من عالج شئون الحضارة بطريقة علميـــة تحليلية .

على أنه اذا كان ابن خلدون قد بلور مفهوم الحضارة عند العرب على أنها ذلك النمط من الحياة المستقرة والذى يناقض البـــداوة فينشىء القرى والامصار ويضفى على حياة أصحابه فنونا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة وادارة شئون الحياة والحكم وتوفر وسائل الدعة وأسباب الرفاهية .

اذا كان ابن خلـــدون قد بلور هـــذا المعنى التاريخى واعتبر الحضارة غاية العمران فان مفهوم الحضارة فى عصرنا قد امتد الى

الوان من المعنى هى أبعد وأوسع مما رآه ، ابن خلدون فى عصره . وفى بيئته العربية فى انتقالها الاجتماعى والسياسى والمدنى من البادية الى الحضر .

ولئن كان بعض العرب القدامى قد استعمل لفظ (مدنى) بمعنى (اجتماعى) فان مفهوما آخر ظهر واتصل بها أصبح الان يعرف بالمدنية بل ان ابن خلدون ذاته كان سباقا أيضا فى هذا المجال اللفظى فاستعمل صيغة التمدن وكان يعنى بها (التحضر) .

على أن تلك المفاهيم اللغوية انما نشأت فى بيئة عربية كانت حياة الحضر فيها تقابل حياة البادية ولكن هذه الحالة من التقابل لا تكاد توجد بصورتها التقليدية الا فى جهات قليلة جدا خارج عالمنا العربى ولذلك فان لفظ الحضارة فى مفهومه العالمى ومفهومه الحديث المعاصر بصفة خاصة قد أصبح أكثر اتساعا مما كان يدل عليه فى مفهومه اللغوى التقليدى .

واذا كان اصل معنى الحضارة (بفتح الحاء وكسرها) الاقامة فى الحضر فان المعاجم الحديثة تعرف الحضارة فى استعمالها المولد : بأنها مظاهر الرقى العلمى والفنى والادبى والاجتماعى فى الحضر . وقد يكون من المفيد أن تعرف مفهوم لفظين آخرين لهما فى حياتنا شأن كبير وهما : الثقافة والمدنية .

فأصل مادة التثقيف فى العربية : التشذيب والتهذيب والتقويم والحذق والفطانة ومعاجمنا تعرفها فى الاستعمال المحدث بأنها :

العلوم والمعارف والفنون التى يطلب الحذق فيها ونستطيع ان نقول انها تشمل كل ما يتصل بالروح والفكر والعقل والذوق والمشاعر وهى حصيلة الحياة الانسانية فى هذه المجالات كلها ، وتجمع انماط الحياة الروحية والفكرية واللغوية والادبية والفنية ولها صورها التى تتعدد وتتلاقى بين الشعوب والتى يتصل بعضـــها بتراث مشترك للانسانية ويتصل بعضها الآخر بحياة جماعات بذاتها دون سواها .

ومادة مدن وتمدن متصلة بالمدينة والعيش فيها والاخذ بأسباب الحضارة وقد اتصل لفظ المدنية فى مفاهيمنا الجارية بالجانب المادى والمظهرى من الحياة وذلك من حيث مقوماتها الطبيعية ومنشأتها الملموسة .

وكذلك من حيث الانماط المعيشية فى اسسها المادية وفى صورها المحسوســـة فى حياة المجتمع وما يتصل بهـــذه المظاهر المـــادية والمحسوسة فى حياة الجماعة من قواعد ونظم وأعراف .

والحضـــارة بمفهومها الحديث هى الحصيلة الشـــاملة للمدنية والثقافة ومجموع الحياة فى صورها وانماطها المادية والمعنوية وهى الخط العريض الذى يسير فيه تاريخ كل شعب من الشعوب على الارض ومنها الحضارات القديمة والحضارات الحديثة والمعاصرة ومنها الاطوار الحضارية الكبرى التى تصور انتقال الانسان أو الجماعات الخاصة من مرحلة الى مرحلة .

ولئن كان الاسلام قد امتاز بأنه دين الحضارة الانسانية حيث تقديس حرية الفكر واعزاز حرية الانسان وكرامته وتشجيع المعرفة

والنظام والمســاواة بين الناس فى ظلال اخاء شــامل وعدل تام وروحانية صافية واعتزاز بالمثل العليا والقيم الاخلاقية السامية .

فان واقع الامر يبين لنا أن الحضــارة الاسلامية اســتمدت مقوماتها وعناصر وجودها من الاسلام ذاته .

واذا كان ظهور الاسلام قد سبقه فى جزيرة العرب وما جاورها حضارات أقدم منه كما سبقته أيضا فى البلاد التى انتشر فيها الوان من الحضارات القديمة ذات الطابع المحلى أو الاقليمى .

فان الاسلام استطاع أن يضفى على البلاد التى شملها لونا مشتركا من الفكر الدينى والحياة والمعاملات والعلاقات الانسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية حتى أصبح هناك قدر حضارى مشترك بين المسلمين فى مختلف الاقطار وبلاد الدنيا .

دعائم الحضارة الاسلامية :

١ — ان الاسلام قد انطوى على طاقة روحية جعلت منه ثورة حقيقية بل أن ثورته من هذه الناحية شملت حياة الافراد والجماعات من جميع الجوانب فهى ثورة روجية وثورة فى العبادة والنفوس وثورة فى الحياة العملية والمعاملات وثورة فى النظم الاجتماعية بل وفى نظم الحكم وصلة الحاكم بالمحكوم وكذلك فى تشريعات الجماعة والاسرة والشىء المهم فى هذا الدفع الثورى أنه كان اصلاحا جزريا يمس أساس الاوضاع فى حياة الناس وكان يستمد قوته من معينه الاصلى الذى لا ينضب وأنه لم يهدأ فى يوم ما من تاريخ الاسلام .

٢ ــ ان الاسلام كان منذ يومه الاول دين دعوة له رسالة يجب على المسلم ان يبلغها الى الناس كافة وكانت حالة الشعوب واتصالاتها قد أهلتها لان تتلقى الرسالة الالهية التى فرضت على أصحابها ان يبشروا بها بين الناس شرقا وغربا .

والدعوة فى الاسلام قد واتتها ظروف الانتشار فى النطاق العالمى وبالتالى تمكن الاسلام من أن ينشر طابعه الحضارى كعقيدة وكنمط للحياة الاجتماعية فى نظمها المادية والبشرية ومن هنا اصبح الدين مقوما أساسيا من مقومات الحضارة الاسلامية .

٣ ــ كان الاسلام دينا سهلا غير معقد ولا مركب فى عقيدته ونظمه وكان فى الوقت ذاته دينا مباشرا يتصل فيه العبد بخالقه دون وساطة (اذا سألت فأسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله) وقد كانت البساطة فى العقيدة شاملة للعبادات والمعاملات جميعا .

وما نظن دينا يطلب الى الفرد شهادة أبسط من شهادة الاسلام على عمقها وجلالها (لا اله الا الله محمد رسول الله) ومن هنا كان الموقف على عتبة الاسلام موقفا سهلا وكانت القاعدة الثابتة لدى من بشر بالاسلام ان الدين يسر لا عسر . ومن هنا كان الاطمئنان الروحى والفكرى أول ما يستشعره من يدخل فى دين الله خصوصا وان اعتناق العقيدة كان لابد ان يأتى مباشرة دون وساطة أو وكالة على أنه من الحق ان نذكر ان هذه البساطة لم تنته بالضرورة الى ذلك القدر من المرونة الذى قد يشوه التطبيق ولعل

المقوم الاساسى الذى لم يجعل البساطة تنقلب الى مرونة مشوهة هو أن القرآن كان وعاء للعقيدة حفظها على مر العصور واضفى عليها الطابع المشترك فى مختلف البيئات وتحت مختلف الظروف .

٤ ـــ كان الاسلام دينا رحبا يقبل الاجتهاد ويدعو اليه فى حدود أصول العقيدة وكان يدعو الى سبيل العقل كما يدعو الى سبيل الضمير والحق ، ومن هنا كانت الدعوة الى النظر والى المعرفة أساسا من أسس الدعوة الاسلامية وكان التفتح العقلى البصير مفتاح الدعوة الحضارية .

والاسلام فى رحابته الحضارية استطاع أن يمتص الوان الحضارة فى البلاد التى انتقل اليها وأن يسبغ عليها طابعا اسلاميا شاملا .

٥ ـــ كان الاسلام دينا للدنيا والآخرة معا وهو فى هذا قد اختلف عن كثير من الديانات والعقائد التى ينبع بعضها فى ماديات الحياة ثم يضفى عليها مسحة من العبادة أو الفلسفة وينبع بعضها الآخر فى مجال الروحية التجريدية وقد ترتب على ما اتصف به الاسلام من جمع بين الروح والمادة أنه أصبح دينا حيا يلائم حياة الناس ومنطق التطور . كذلك أصبح الاسلام أكثر التصاقا بالحياة فى مفهومها الحقيقى وصورتها الواقعة وفى الوقت ذاته أصبحت العقيدة على اتصال دائم بالبناء الحضارى فى مجالى المدنية من جهة والثقافية الروحية والعقلية بل والاجتماعية من جهة أخرى .

٦ ـــ كان الاسلام دين قيم وضوابط سلوكية مادية ومعنوية وهذه القيم يتصـــل بعضها بحياة الافراد ويتصل بعضها الآخر بحيـــاة الجماعات فالاسلام أعطى نظاما متكاملا للحياة ســـواء من وجهة نظر الفرد أم وجهة نظر الجماعة وهذا النظام شمل علاقات الافراد وكثيرا من نواحى الحكم ذاته وقد يكون من أبرز القيم التى استند اليها نظام الحياة الاسلامية فكرة القيمة الذاتية للانســـان الفرد واستنادها الى فكرة المسئولية الفردية (كل نفس بما كسبت رهينة ـــ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) ثم فكرة الاخاء التى تجعـــل المسلم ينتمى الى جماعة المسلمين ويحس بأنه عضو من اعضاء الجماعة المسلمة .

٧ ـــ البيئة بعواملها المحلية وبموقعها الجغرافى قد ساعدت على أعطاء الحضارة الاسلامية ماكان لها من طابع بل ومن مكانة ولقد كانت الجزيرة العربية ذاتها منطقة وصل بين أطراف العالم عندما تلتقى القارات الثلاث فى العالم القديم ومن شواطئها ومفارقهـــا تمتد بحار الشمال بادئة بالبحر المتوسط ، وبحار الجنوب بادئة بالبحر الاحمر والخليج العربى وقد كان عدم اتصال المياه بين الشـــمال والجنوب سببا فى أن شبه جزيرة العرب كانت نقطة تغيير فى وسائل المواصلات وفى ظهور دور الوساطة الذى كتب للعرب أن يقوموا به ، ولم يكن الامر فى ذلك بالطبع مجرد التوسط الجغرافى على أهميته وانما كان الامر أوسع وأعمق فهو توسط من ناحية الطبيعة البشرية ومن ناحية السلوك الانسانى ومن ناحية الاعتدال فى كل

ما يتصل بالمادة والمعنى فى الحياة وهى أمور اتصلت كلها بطبيعة البيئة العربية ومن هذه البيئة الوسط انتشر الاسلام شرقا وغربا بالبر والبحر على حد سواء .

٨ ـ وبجانب هذا وذاك كانت مقومات تاريخية وبشرية تتصل بالعصر الذى ظهر فيه الاسلام وانتشرت عقيدته ثم بالعنصر البشرى والتكوين السكانى للمجتمعات الاسلامية .

فأما عن العصر فان الاسلام كان ختام الاديان السماوية وكان بذلك رباطا لها من الناحية التاريخية كما كان فى الوقت ذاته ممثلا روحيا جديدا لصور من الديانات السابقة التى شوهها الزمن ، وكان على الاسلام أن يصححها ويرد اليها أصالة الفكر التوحيدى . ولقد كان هذا كله مصدر قوة ودفع للفكر الاسلامى وما اتصل به من حضارة وكذلك كان الامر بالنسبة لتصدى الاسلام لمعتقدات غير سماوية فهذا التصدى كله كان الحافز للفكر الاسلامى والنظم الاجتماعية فى أن تحتفظ بأصالتها من جهة وأن تجدد حيويتها وتوسع نطاق رحابتها من جهة أخرى ، ومن هنا انطوى التفاعل الاسلامى مع الوان الحضارات التى التقى بها ، على قوة غلبت كل التحديات فانتشر طابع الحضارة الاسلامية فى فعالية لم يعرف لها مثيل .

ومما يذكر أن قوة الاسلام فى انتشاره وترسيخ معالم حضارته قد تضاعفت بفعل مقوم انسانى عظيم ، هو تنوع السلالات التى دخلت فى الاســـلام .

ثم هناك ظاهرة أخرى ترتبت على كل هذه الجوانب والعوامل وهى ظاهرة الاتصال والاستمرار الزمنى فى الحضارة الاسلامية .

ان هذه الحضارة تمتاز بأن كل مقوماتها الجوهرية تنبع من وحى رسالة السماء التى تمدها بالروح والقوة والتماسك وتوجهها الى الموازنة بين مقاصد الروح ومطالب البدن والبعد عن الزهد المعطل للعمل وعن المادية الجامحة المفسدة .

فهى فى نظام عقيدتها تقوم على توحيد الله وافراده بالعبادة والتنظيم والتمسك بما شرع من آداب السلوك والمعاملة .

وهى فى نظامها السياسى تقوم على الشورى والنزول على رأى الجماعة والمساواة بين الناس واحترام حقوق الانسان والتزود بكل أسباب القوة والمنعة والدفاع عن مقدسات العقيدة والوطن وفى نظامها الاخلاقى تقوم على خلوص النية ونقاء الضمير والتمسك بقيم الخير والحق والتزام الاداب الفردية والاجتماعية التى تسير بالبشرية الى الكمال .

وفى نظامها الاجتماعى تقوم على الاسرة المتماسكة القائمة على أساس من المودة والرحمة والاخلاص وتعاون المواطنين على الخير والبر وقيام كل راع بمسئوليته .

وفى نظامها الاقتصادى تقوم على تبادل المنافع واتخاذ المال وسيلة لا غاية واحترام الملكية الفردية غير المستقلة أو المعطلة للصالح العام .

وفى نظامها التشريعى تقوم على أصول رئيسية واسعة وقد تمثلت هذه الناحية فى ثروة من الفقه الاسلامى تجلت فيها عبقرية الحضارة الاسلامية وتمثلت فيها حرية الاجتهاد الفكرى ، وفى نظامها الثقافى تعتمد على طلب المعرفة واستخدام العقل فى كسب المعارف وتسخير الطبيعة لسعادة الفرد والجماعة واعتبار الثقافة أيا كان مصدرها تراثا عاما للانسانية .

ونستطيع أن نصل الى أن الحضارة الاسلامية :

١ ــ وصلت بين قديم الحضارات وجديدها بما حفظت من تراث الاقدمين وما أضافت اليه من صنع عبقريتها المبدعة .

٢ ــ أنقذت العالم القديم مما كان يعيش فيه من فوضى وانهيار واضطراب فى الحضارات واستعباد وظلم اجتماعى .

٣ ــ أعطت العالم حضارة جديدة تقوم على عقيدة التوحيد فى أسمى صورها واصفاها ومجتمعا جديدا يقوم على التعاون والتسامح والحرية والتعايش السلمى بين الجميع .

٤ ــ أعطت الانسانية ذخيرة ضخمة من المعارف أفاد منها الغرب فى عصر الاحياء والنهضة واعتمد عليها العالم الاسلامى فى يقظته الحديثة وفى بناء نهضته المعاصرة .

٥ ــ وضعت بعض أصول المنهج العلمى الحديث ــ كطريقة الشك عند (الغزالى) كما فتحت آفاقا جديدة فى البحوث الانسانية ــ كفلسفة التاريخ عند (ابن خلدون) وعلم البصريات على يد

(ابن الهيثم) وابتدأت مرحلة جديدة فى تطور علوم الرياضة على يد (الخوارزمى) ، « عمر الخيام » .

٦ — ساعدت بآدابها على نهضة الاداب فى أروبا وفتح آفاق جديدة أمام شعراء الغرب وكتابه .

٧ — ساعد خلفاؤها وقادتها — بسلوكهم الاخلاقى وبنماذج المروءة والشرف التى تخلوا بها على اشاعة المثل الأخلاقية الرفيعة مما كان قدوة لمن احتك بهم فى السلم او فى الحرب من رؤساء العالم المسيحى وقادته .

العبقرية العلمية فى الإسلام

وبهذا كله استطاع المسلمون فى سرعة لم يمهد لها مثيل فى تاريخ البعث والنهوض أن ينتقلوا من أمة الأمية الى أمة العلم والقيادة الفكرية وان يصبحوا أساتذة العالم وقادة الفكر ورواد العلوم والفنون . يدرسونها للاجيال المعاصرة كأحسن ما يكون الدرس والتعليم ويدونونها للاجيال المقبلة كأحسن ما يكون التأليف والتدوين وينشرونها فى شعوب كانت تائهة فى عماء الجهل وظلمته فقد كانت بعوث الامم تفد على العواصم الاسلامية من كل ناحية فيأخذون عن علمائها ما شاءوا من أفانين العلوم وألوان المعرفة ثم يعودون عن بلادهم حاملين اليها مشاعل هذه العلوم التى نفخت فيهم روح الحياة والبعث . وفتحت لهم طريق الانتفاع بأصلين عظيمين من اصول الاصلاح الاسلامى وهما :

حرية الفكر واستقلال الارادة : فلم تنهض العقول للبحث ولم تتحرك النفوس للعمل الا بعد أن عرفت أن لها حقا فى طلب الحقائق .

ولقد تلمست أوربا حضارة المسلمين العلمية فاستقت من روافدها المعرفة والفلك والجبر والهندسة والكيمياء والطب والفلسفة والزراعة وسائر أنواع الفنون الحضارية .

وبنى رجال أوربا بما تعلموه فى معاهد المسلمين بالاندلس وبما نقلوه من علوم أسس النهضة الحديثة التى ظهر نجمها فى القرن الثامن عشر وازدهر فى القرن التاسع عشر وتألق فى القرن العشرين .

والاسلام بدعوته الى العم هو الذى أخرج رجال الحضارة وجهابذة العلم وأساتذة الدنيا وعمالقة العلماء أمثال :

ابن الهيثم ، والكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، والبيرونى ، والبتانى ، والفرغانى ، والطوسى ، والبغدادى ، والدينورى ،

والرازى ، والقزوينى ، والانطاكى ، والزهراوى ، والخوارزمى ، والصوفى ، وجابر ، والجاحظ ، وابن البيطار ، وابن النفيس ، وابن حيان ، وابن حمزة ، والادريسى ، والمسعودى ، وابن بطوطة وابن زهر .

وهذا ابن الهيثم (٩٦٥ — ١٠٣٩) يبحث فى السهول والاودية ويجل فيها طولا وعرضا حتى يضع قواعد علم الضوء .

وابن الدجيلى يسهر على قمم الجبال العالية يحدق فى الكواكب والنجوم ليحدد افلاكها ويعرف أبعادها .

وابن النفيس يجرى التجارب والاختبارات حتى يثبت أن الدم ليس سائلا مستقرا فى الاوردة والشرايين المبثوثة فى الكائن الحى . بل هو سائل متحرك يدور فى جميع أجزاء الجسم وذلك قبل أن يكتشف (هارفى) الدورة الدموية بثلاثة قرون .

وابن مسكويه يسبق فلاسفة أوربا وعلمائها بثمانية قرون فى علوم الاخلاق والفلسفة والتهذيب والبيلوجيا .

وجابر بن حيان يحلل عناصر الطبيعة وتفاعل المواد المختلطة حتى يضع أصول علم الكيمياء وابن يونس يسبق العلماء فى اختراع بندول الساعة « الرقاص » .

هذا كله فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تعيش فى ظلمات الجهل والفوضوية والهمجية والتأخر ، ولم ينقذ أوربا من ورطتها التى كانت واقعة فيها الا نور الاسلام . وما زالت أسماء العلوم والمصطلحات التى اعطاها هؤلاء العلماء المسلمين لغرائب العلم ما زالت حية نابضة فى جميع اللغات رغم ما نالها من تحريف وتغيير . ولقد سجل التاريخ آيات هذه الحضارة العربية الاسلامية باعزاز كما شهد لها المنصفون من فلاسفة العالم ومؤرخيه الذين لا يبغون

من بحوثهم ودراساتهم الا مرضاة العلم فى ذاته . والذين لا تسيطر عليهم العصبية الهوجاء والسطحية العمياء .

واننا نسوق الى العربى بعض النقول التى جاءت على لسان فلاسفة العالم والتى تشهد صراحة وضمنا لمجد الحضارة الاسلامية .

والواقع ان الاسلام ليس فى حاجة الى اقوال هؤلاء فهو قوى بذاته . لكننا نأتى بها لما نراه من أن كثيرا من كتابنا ومؤرخينا يغمطون حق حضارة العرب . والى هؤلاء وأولئك بعض اقوال كواكب الاستشراق والبحوث العلمية والدراسات الواسعة :

قال « هيرشفيلد » وليس للقرآن مثيل فى قوة اقناعه وبلاغته وتركيبه واليه يرجع الفضل فى ازدهار العلوم بكافة نواحيها .. وان الدين الاسلامى مخالف لهذه الابراج الشامخة التى تسقط من ضربة واحدة لأن فيه قوة وصلابة ومتانة تجعله قادرا على المقاومة قدرة تامة .

وقالت الكاتبة الالمانية الدكتورة « سيجريد هونكه » أن هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحراء من العدم من أعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى فسيادة أبناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة فى نوعها وان الانسان ليقف حائرا أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة والتى يحار الانسان فى تعليلها وتكييفها .

وقالت أيضا « وان أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية وان الدين الذى فى عنق أوربا وسائر القارات للعرب كبير جدا .

وقال العلامة « كاربنسكى » ان الخدمات التى أداها العرب للعلوم لم تكن مقدرة حق قدرها من المؤرخين وان الابحاث الحديثة قد

دلت على عظم ديننا للعلماء المسلمين الذين نشروا العلم بينما كانت أوربا فى ظلمات القرون الوسطى » .

وقال الفيلسوف الفرنسى « الكسى لوازون » خلف محمد للعالم كتابا هو آية فى البلاغة وسجل للأخلاق وكتاب مقدس ؛ وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا او المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الاسس الاسلامية فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعيـــة .

قال العلامة « دريبر » المدرس بجامعة (هارفارد) بأمريكا فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) « ان اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة ٦٣٨ ميلادية أى بعد موت محمد بست سنوات ولم يمض عليهم بعـــد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية وقدروها حق قدرها .

ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج هذه المركة العلمية العظمى ؛ لخرجنا عن حدود هذا الكتاب فانهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا وأوجدوا علوما جديدة لم تكن معروفة قبلهم » .

« ان نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليا بالتقدم الباهر الذى نالته الصناعات فى عصرهم فقد استفادت منهـــا فنون الزراعة فى اساليب الرى والتسميد وتربية الحيوانات وسنن النظم الزراعية الحكيمة وادخال زراعة الارز وقصب السكر والبن وقد انتشرت معاملهم ومصـــنوعاتهم لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصـــوف والحرير والقطن . وكانوا يذيبون المعادن ويجودون فى عملها على ما حسنوه وهذبوه من سبكها وصنعها واننا لندهش حين نرى فى مؤلفاتهم من الاراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر » .

ويقول فى مواطن أخرى « ان جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الاوربيين الذين نزحوا اليها من بلادهم لطلب العلم وكان ملوك أوربا وأمراؤها يغدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها » .

وقال العلامة سديو فى كتابه تاريخ العرب :

« كان المسلمون فى القرون الوسطى منفردين فى العلم والفلسفة والفنون وقد نشروها اينما حلت أقدامهم وتسربت عنهم الى أوربا فكانوا هم سببا لنهضتها وارتقائها » وقال العلامة جيبون المؤرخ الانجليزى .

« كان من أثر تنشيط الامراء المسلمين للعلم أن انتشر الذوق العلمى فى المسافة الشاسعة بين سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة ويروى عن وزير لاحد السلاطين أنه تبرع بمائتى الف دينار لتأسيس جامعة علمية فى بغداد ووقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنويا وكان عدد طلبتها ستة آلاف لا فرق فيهم بين غنى وفقير .

وقال دربير :

أول مدرسة أنشئت للطب فى أوربا هى المدرسة التى أسسها العرب فى (بالرم) من ايطاليا وأول مرصد أقيم فيها هو ما أقامه المسلمون فى اشبيليه بأسبانيا . وانهم رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا وأوجدوا علوما أخرى لم تكن موجودة من قبلهم .

ولقد امتاز العرب فى الجمع بين فروع العلم والادب وفاقوا غيرهم فى هذا الميدان ومن يطلع على كتب محمد بن موسى الخوارزمى ، يجد ان المؤلف جمع بين الجبر والادب ، فأنت تجد أن المادة الرياضية مفرغة فى أسلوب أخاذ وقالب أدبى رائع لا ركاكة فيه ولا تعقيد .

وانظر الى كتب البيرونى تجد أن الادب والرياضيات اجتمعا متعانقين . قال العلامة درابرا : لقد كان تفوق العرب فى العلوم ،

ناشئا عن الاسلوب الذى توخوه فى مباحثهم وهذا الاسلوب هو الذى أوجب لهم هذا الترقى الباهر فى الهندسة والمثلثات .

وقال الكاتب الهندى فسوانى : التهذيب العربى هو الذى أنشأ فى آسيا وأوربا نشأة جديدة وانسانية جديدة .

ان هذه الاقوال التى جاءت على لسان علماء أفذاذ لمرضاة العلم فى ذاته تشهد صراحة وضمنا وجملة وتفصيلا لحضارة المسلمين ومدى فاعلية الحضارة الاسلامية الانسانية التى لمست الانسانية فيها معانى السيادة ومست القلوب فيها معانى السعادة واعتلت فى ظلها صروح المجد .

هذه الحضارة ستظل خالدة خلود الأبد باقية بقاء الدهر ، مدوية دوى الاذان لا ينضب لها معين ولا ينتهى لها مدى ولكن ذلك رهين برجوع العرب الى منابع عزهم قال الدكتور جورج سارطون : ان المسلمين يمكن أن يعودوا الى عظمتهم الماضية اذا عادوا الى فهم حقيقة الحياة فى الاسلام والعلوم التى حث الاسلام على الأخذ بها .

وقال الدكتور فيليب حتى : ان الشرق الاسلامى هو اليوم فى مطلع دور جديد فى حياته العلمية كما أنه فى فجر جديد فى حياته السياسية وهو دور يمكن أن نسميه دور الابداع والابتكار ضمن اطار الميراث الخالد من القيم الدينية والادبية ولنا أن نتكهن ان ابناء الثقافة الاسلامية على اختلاف بيئاتهم سيقومون بقسطهم فى خدمة المدنية والانسانية وبما يجعلهم خلفاء جديرين بالميراث الذى تركه لهم اجدادهم .

رقم الايداع بدار الكتب
٤٧٠٢ / ١٩٧٠

مطابع الأهرام التجارية

الثمن قرشان

مطابع الأهرام التجارية